المحاضرة العاشرة (الهجرة الجزائرية إلى الخارج وانعكاساتها)

تعتبر حركة الهجرة التي جسدتها الجماعات السكانية من مختلف مناطق القطر الجزائري، ظاهرة أفرزتها جملة من العوامل التي خلفتها الإجراءات والقوانين الفرنسية التصفية، فالهجرة ظاهرة قديمة تتمثل في انتقال الأفراد والجماعات من منطقة إلى أخرى سعيا وراء العيش والأمن. فما هو مفهوم الهجرة الجزائرية وأهم الأسباب والظروف التي تحكمت فيها، وما هي الوجهات التي قصدتها بحثا عن الأمن والاستقرار ؟ .

أ - أسباب الهجرة الجزائرية:

بدأت هجرة المسلمين منذ سنوات الاحتلال الأولى فمنذ سنة 1832 توجه المهاجرون نحو بلدان المغرب العربي بسبب اضطهاد فرنسا لهم، وقد تضافرت عدة عوامل داخلية وخارجية لظاهرة الهجرة.

1 - الأسباب الداخلية

- الأسباب السياسية والعسكرية

ولعل أهمها :رفض الجزائريين العيش في ظل النظام الاستعماري الذي اشتدت وطأته أكثر عليهم منذ 1870 في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة من خلال ترسانة القوانين الظالمة والردعية العنصرية كقانون الأهالي 1881 وهو مجموعة من النصوص القانونية الاستثنائية والإجراءات الصعبة التي بدا الاستعمار في تطبيقها على الشعب الجزائري منذ سنة 1874 وهي تحول السلطات الإدارية حق معاقبة الجزائريين على العديد من المخالفات المنصوص عليها في القانون وهو واحد من عشرات القوانين المسلطة على الجزائريين أثناء فترة الاحتلال.

وكذلك إقامة المحاكم الردعية سنة 1902 التي عملت على استعباد الشعب الجزائري وحرمانه من ابسط الحقوق والحريات السياسية. وقانون التجنيد الاجباري 1912 مما فع آلاف الجزائريين الى مغادرة وطنهم نحو البلدان العربية... وغيرها .

قتل زعماء المقاومات الشعبية المسلحة، وما تبعها من اجراءات انتقامية للإدارة الاستعمارية التفكير في ترك الوطن للمستعمر. جريت الجزائريين من أموالهم وأراضيهم وحقوقهم السياسية والمدنية، ودفعتهم إلى وهذا ما يقودنا للاستشهاد بقول الكاتب الفرنسي مرسيه Mercier الذي يقول : أن الحياة الاستعمارية الجديدة من بين الأسباب التي قادت إلى الهجرة الجزائرية، فقد كان ذلك يعني أنه لم يعد في استطاعة الجزائريين أن يتمتعوا بحياتهم القديمة كما كانوا سابقا.

- الأسباب الاقتصادية والاجتماعية

وتتمحور عموما حول :

- سلب الأراضي من أصحابها الشرعيين واستلاء المعمرون وأصحاب الشركات الكبرى هكتار عليها وكمثال على ذلك أصبح الأوربيون في الجزائر يمتلكون 00124000 هكتار منها 0070001 هكتار منزوعة الملكية، كما يملك 73، 5 منهم أكثر من 100 عدم التعويض للأملاك المصادرة، فسياسة الاستيطان، التي استمرت أكثر من قرن أودت إلى تجريد الجزائريين من أراضيهم والعمل في مزارع المستوطنين، التي كانت من قبل ملكا لهم، وذلك مقابل أجور زهيدة لا تفي بضروريات الحياة

- احتكار السلطات الفرنسية للتصنيع في الجزائر وذلك من أجل إبقائها تابعة للاقتصاد الفرنسي، إضافة إلى عدم قبول رجال الأعمال الفرنسيين استثمار أموالهم في الجزائر . تدهور مستوى المعيشة نظرا لفقد الجزائريين لأراضيهم وقطعان ماشيتهم وأملاكهم وانتشار الفقر والبطالة، وهو ما أجبر أعدادا هائلة على مغادرة قراهم، فتحولوا من ملاك ارضي إلى عمال زراعيين يستعبدهم المستوطنون، إضافة إلى ممارسة الإبادة والتشريد والنفي كجزء من السياسة الفرنسية الرسمية- .

- كثرة وثقل الضرائب المفروضة على الجزائريين الذين كانوا يدفعون إلى جانب الضرائب العامة ضرائب خاصة بهم جعلتهم يدفعون أضعاف ما يدفعه المعمرون المترفون .

- تردي المستوى المعيشي مما أدى إلى انتشار المجاعات في سنوات 1893، 1897... وغيرها، وتفشي الأوبئة والأمراض الفتاكة كالكوليرا والتيفوس مما رفع من نسبة وفيات الأطفال الجزائريين بصورة مهولة بسبب المجاعة و غياب الراعية الصحية الضرورية.

- الأسباب الثقافية والدينية

بعدما قضت السلطات الفرنسية على العديد من المراكز التعليمية لطمس الهوية والشخصية وإبعاد اللغة العربية عن الحياة العلمية، لإحياء ثقافتها وتراثها الحضاري على أرض الوطن، وتوسيع تعليم اللغة الفرنسية، وإنشاء مؤسسات في عدة مناطق من أجل السيطرة على المؤسسات التعليمية وتثقيف الشعب بالثقافة الفرنسية ،إضافة إلى محاربة الإسلام من خلال مصادرة الأوقاف وتضييق الخناق على التعليم العربي بضرب المؤسسات التعليمية وحظر فتح المدارس والكتاتيب إلا بترخيص من الإدارة. وعليه كانت الهجرة المخرج الأخير للجزائريين للحفاظ على عقيدتهم ومقوماتهم الشخصية، وقد لعب في هذا الصدد العديد من العلماء والفقهاء دورا في نفس الاتجاه والدعوة إلى الهجرة على قبول العيش تحت الإدارة الفرنسية وهو ما كان له انعكاس واضح على تسارع الهجرة.

ب - الأسباب الخارجية

هناك عدة عوامل أخرى شجعت على حركة الهجرة نحو المشرق العربي والإسلامي وكذلك نحو تونس والمغرب، ومن ذلك أن بعض الحضر أهل المدن كانوا من أصول مشرقية حيث أخذوا يحثون إخوانهم في الجزائر على الالتحاق بهم في الشام أو في اسطنبول أو في الحجاز و كانوا يزينون لهم الإقامة هناك ويذكرونهم بمساوئ الحكم الاستعماري، ومن جهة أخرى فإن للمشرق سحره وجاذبيته في أذهان الجزائريين، ويظهر ذلك في ملائمة البيئة الثقافية والدينية واحتضانه أهم الأماكن المقدسة الإسلامية

في مكة والمدينة والقدس وأكبر منارات العلم كالجامع الأزهر بالقاهرة وجوامع أخرى في الشام والحجاز واحتفاظه باستقلاله عن الاستعمار الأوربي تحت راية الخلافة العثمانية وتساهل السلطات العثمانية غالبا مع المهاجرين. ومن بين العوامل التي شجعت الجزائريين إلى الهجرة نجد منها

- **صدى وأفكار الجامعة الإسلامية؛** لقد تأثر الجزائريون بالحركة الإصلاحية وحركة الجامعة الإسلامية مما أوحى للجزائريين بوجود عالم أكثر حيوية وحرية في المشرق.

- **تأثير الصحافة المشرقية**؛ لعبت الصحافة المشرقية دورا كبيرا في دفع عجلة النهضة الجزائرية من خلال اهتمامها ببعض قضايا المجتمع الجزائري ومحاربتها للاستعمار الفرنسي وسياسته التعسفية كما ساهمت في حث الجزائريين على مواصلة النضال الوطني.

ج . الهجرة إلى بلدان المغرب والمشرق العربي

لقد توالت هجرات الجزائريين منذ الأيام الأولى للاحتلال فابتداء من 1832 هجرت عدة عائلات من الجزائر العاصمة إلى مدينة تطوان في المغرب، ومن وهران ومستغانم إلى وجدة وتازة، ومن تلمسان إلى فاس، كما فرت قبائل الحشم وبني عامر إلى المغرب بعد نهاية مقاومة الأمير عبد القادر للهروب من الاجراءات العقابية للاحتلال ورفضوا العودة رغم تهديدات السلطان المغربي وأوامره بالرجوع إلى الجزائر والذي نظم حملة تأديبه لإبادتهم. كما هاجر الكثير من سكان قسنطينة بعد سقوط المدينة سنة 1837 إلى تونس والشام، كما فر الكثير من أتباع الزاوية الرحمانية حيث بلغ عددهم حوالي 3000 شخص إلى سوريا، وزادت حدة الهجرة سنوات 1854، 1860، 1861، 1864.

في هذا الشأن؛ فإن الكتابات التاريخية تشير إلى أن الذين هاجروا مع "أحمد الطيب بن سالم خليفة" الأمير "عبد القادر "على القبائل والشيخ "المهدي السكلاوي" وعائبة "المبارك الطيب" سنة 1847 من إلى بلاد الشام واستقروا في لواء عجلون بفلسطين ودمشق قد بلغ قرابة 560 شخصا بين رجال ونساء، وتقول التقارير الفرنسين آنذاك. أنه في سنة 1855 قد لحق بهم 84 جزائري مع أولادهم ونسائهم، وأنهم يخرجون من الجزائر بداعي ثم يلجؤون إلى سوريا بنية الاقامة النهائية فيها،

وبعدما استقر الأمير "الأمير عبد القادر" في دمشق سنة 1856 لحق به خليفته "محمد بن عبد الله الخالدي" في مجانة مع قبيلته أولاد سيدي خالد وبني عامر وسيدي عيسى وهم فروع من وادي بردي، والذين بلغ عددهم 577 شخصا. وفي سنة 1860لحقت بهم سنة 200 عائلة من بلاد القبائل يقودهم المرابط "الحاج العيد". ومنهم من تم ترحيلهم وتهجيرهم من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية إلى الاسكندرية كما مع هو الحال مع "سي الصديق" وعائلته التي كانت مؤلفة من 54 فرد. وقد شملت الهجرة في هذه المرحلة الأغنياء والعلماء، وقدرت بعض الكتابات المهاجرين الجزائريين إلى بلاد الشام ما بين سنتي 1855 و1865 قد وصل إلى حوالي 2500 شخص في منطقة دمشق وحدها مع العلم أن نسبة كبيرة من المهاجرين كانت قد استقرت في قرى الجليل وطبرية بالإضافة إلى الأعداد التي استقرت في تونس والمغرب وطرابلس الغرب واستنبول والاسكندرية والحجاز ومن ومن الصعوبة بمكان

إعطاء عدد حقيقي للمجموع التي هاجرت في هذه الفترة وتلي هذه الفترات موجات أخرى تعد بالآلاف بحيث يصل العدد التقريب في مطلع القرن العشرين إلى 20000 مهاجر جزائري.

وعلى اثر فشل ثورة 1871، والإجراءات الجائرة والمتشددة قرر الآلاف من الجزائريين سنة 1874 الهجرة من البلاد وكانت الهجرة عامة، بما فيها القطاع الوهراني ومنطقة القبائل، ومناطق من القطاع القسنطيني الذي قدر عدد الذين خرجوا منه حوالي 700 شخص.

كما أثرت هذه السياسية التي اعتمدت الجمهورية الثالثة سلبا على الجزائر ولا سيما منهم العناصر الدينية من علماء وطلبة، وزوايا ومؤسسات ديني، بحيث اختار هؤلاء العلماء والقراء والطلبة الهجرة باتجاه المغرب وتونس وسورية والحجاز.

ومن حركات الهجرة ما تمّ تحت أعين ممثلي السلطات الفرنسية ومنها ما تمّ خفية عنها فرارا عبر الطرق السرية إلى تونس وطرابلس ووصل عدد الجزائريين المهاجرين إلى تونس وحدها سنة 1876 حوالي 16.600 شخصا، وقد انتقل جل هؤلاء المهاجرين إلى بلاد الشام ومصر والحجاز واستنبول منذ أن فرضت فرنسا حمايتها على تونس سنة 1881، بعد أن أقاموا فترة من الزمن ، وأصبحت لهم فيها مصالح من تجارة وزراعة وغيرها.

كما عرفت سنة 1888 هجرة شديدة بحيث نزلت بمينا عكا بفلسطين 250عائلة جزائرية، وفي نفس منح محافظ الجزائر في اطار الهجرة القانونية إلى 115 جواز سفر لأشخاص من منطقة تيزي وزو ودلس والقبائل. كما وصلت إلى دمشق جماعات أخرى سنة 1892، وحدثت كذلك سنة 1895 هجرة جزائرية نحو الحجاز عندما سمحت السلطات الاستعمارية من منطقة سيدي عقبة إلى حوالي مائة شخص. كما سجل القنصل الفرنسي وصول 105 عائلة إلى دمشق سنة 1896 أي بمعدل 403 أشخاص قدم جلهم من تيزي وزو ودلس، وأزفون وإزكوكر وبجاية واستقر قسم منهم في دمشق واتجه الباقي إلى منطقة طبرية من ولاية بيروت.

ويبدو أن الهجرة الجماعية قلت مع مطلع القرن العشرين إلى المشرق حتى سنة 1909وهذا نتيجة حتمية للإجراءات المتشددة التي أصبحت تمارسها السلطات الفرنسية، على الحدود الجزائرية – التونسية الجزائرية – المغربية، ومنع المسلمون الجزائريون حتى من أداء فريضة الحج مدة أربع سنوات متتالية من 1898 حتى 1901.

ولكن هذا الأمر لم يدم طويلا، حتى بدأت موجة جديدة من هجرة الجزائريين إلى المشرق العربي بسبب القوانين الجديدة التي أصدرتها السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر مع مطلع القرن العشرين، ومنها فصل الدين عن الدولة الذي أصدرته الحكومة الفرنسية بحق الدين الإسلامي في الجزائر سنة 1907 وقانون التجنيد الذي شرع في تطبيقه سنة 1910. وأيضا تزامن هذاء الأخير مع التحركات والتحرشات الفرنسية بالمغرب الأقصى، وقد أجبرت هذه الاجراءات الجديدة المئات من

سكان المنطقة الغربية ومنطقة الوسط، وكذا الشرقية إلى اعتبار الهجرة السبيل الوحيد الذي ينقذهم مما فيه مثلما أنقذ الذين هاجروا في السابق.

ومن هذا المنطلق؛ عبرت الطريقة الدرقاوية السائدة عن رفضها لعمليات الإحصاء بقصد التجنيد الاجباري، ونشط مقدمو الطريقة ومن بينهم "الحاج عمر بن يلس" لدعوة الناس للهجرة إلى بلاد الشام، وتقدموا بطلبات جوازات سفر، إلا أن السلطات الاستعمارية رفضت تسليم هذه الجوازات، فخرج هؤلاء أفواجا في اتجاه بلاد الشام، حيث ضم الفوج الأول 75 شخصا، وكان "الحاج عمر بن يلس" قد قدم منذ عام 1908 يطلب عدد كبير من الجوازات، وعندما وجد الخطر يتهدده عمد إلى الفرار في سبتمبر 1911 والتجأ إلى دمشق.

لقد بدأت موجات الهجرة الجديدة في الظهور في أواخر سنة 1909 وبداية سنة 1910 في القطاع الشرقي من الجزائر وخاصة منطقتي قسنطينة وسطيف، وحدثت خفية عبر الحدود التونسية – والليبية. وكانت أرقام هؤلاء المهاجرين حسبما أوردته الصحف التونسية تتراوح ما بين 30 و 80 شخصا في اليوم.

ومن الأرقام التي ذكرة من البرج أن 15 عائلة هاجرت من صدراته أي بتعداد 100 شخص ومن زمورة 7 عائلات، وعائلة واحدة من المجانة وأربع عائلات من المعاضيض. وخرجت 80 عائلة مهاجرة إلى تركيا ومن بينها 32 عائلة من بلدية عين تاقروت وحدها.

وفي الغرب الجزائري تميزت هجرة أهالي مدينة تلمسان وضواحيها عن باقي الهجرات بكثافتها بحيث لم تغط منطقة في الجزائر وخلال شهر واحد مقدار ما أعطته تلمسان وضواحيها من مهاجرين، فبين شهري أكتوبر ونوفمبر من عام 1911 خرج ما بين 1000 و1200 شخص يمثلون أفراد وعائلات بكاملها عبر الحدود الوهرانية المغربية، وكانت هذه العائلات قد أبحر إلى بلاد الشام من الموانئ الاسبانية في المغرب الأقصى قاصدة الاسكندرية وبلاد الشام.

وعن الأماكن التي توجه إليها هؤلاء المهاجرون، تبين أن نسبة كبيرة اختارت الإقامة في الاسكندرية والقاهرة ومنهم من نزل بهاتين المدينتين ثم أخذ طريقه إلى دمشق أومكة والمدينة، مع العلم أن غالبية مهاجري تلمسان كانوا من ميسوري الحال، ولم يلاقوا صعوبات كبيرة في هجرتهم أو استيطانهم.

وقد أخبر القنصل العام في الاسكندرية وزارة الخارجية الفرنسية عن وجود جماعة من حوالي 200 جزائري من أهالي تلمسان متوزعين بين فنادق البلدة من أهالي تلمسان متوزعين بين فنادق البلدة. وفي تقرير آخر لنيابة القنصلية الفرنسية وأضنة أن سفينة الشركة الخديوية حملت إلى مرسين 500 جزائري من رجال ونساء وأطفال غالبيتهم من سكان تلمسان وضواحيها، وقد استقر بعضهم منذ أشهر في سورية، ثم قررت الحكومة العثمانية توطينهم في منطقة أناورقة في نواحي أضنة.

وفي تقرير بعث به من دمشق القنصل الفرنسي "بيات" إلى وزارة الخارجية أخبره فيها "إن عدد الجزائريين المهاجرين إلى بلاد الشام وصل إلى 175000، وفي كل يوم تصل دمشق أعداد جديدة من جماعات بين 15 و20 شخصا، وذكر أن دمشق وحدها كان يوجد بها 4000 جزائري.

لقد كانت موجة هجرة عام 1911 خاتمة موجات هجرة دامت حوالي ثمانين سنة، ولم تكن الخاتمة محض صدفة أو نتيجة حتمية للإجراءات التي اتخذتها السلطات الفرنسية، وانما هذا التوقف تحكمت فيه عدة ظروف خارجية لا علاقة لها بالجزائر، فالحرب التركية – الايطالية من جهة قد ولدت مخاوف كثيرة وتعطلت بسببها عدة سفن كانت تقل مهاجرين جزائريين في اتجاه بلاد الشام، في الوقت نفسه الذي كان فيه العالم الأوروبي، وحتى العربي يسير بخطى بطيئة نحو تأزم عالمي تكون نتيجته حرب عالمية، عرفتها البشرية، وشغلت الساسة والشعوب بما فيها الشعب الجزائري، هذا إضافة إلى أن السلطات العثمانية، ولظروفها الداخلية والخارجية الصعبة لم يعد يهمها ويشغلها كثيرا قدوم المهاجرين إلى البلاد العثمانية، كما قلّ الاهتمام بالمهاجرين ونقص الدعاية للهجرة.

د - الهجرة الجزائرية إلى فرنسا

بدأت الهجرة مباشرة بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر سنة 1830، عندما نفي الجنرال "كلوزيل" عددا من الشخصيات الجزائرية المعرضة للاحتلال والمقاومة له مثل: "حمدان أمين السكة" و"أحمد بوضربة" و"حمدان خوجة". وأخذت بعد ذلك تتزايد أعدادها شيئا فشيئا، وببطيء إلى أن اندلعت الحرب البروسية – الفرنسية عام 1870 فهجرت فرنسا عشرات الآلاف من الجزائريين ليشاركوا في الحرب بالجبهة ويخدموا أغراضها، في الورش، والمصانع والمزارع، وقتل منهم عشرون ألفا في جبهات القتال خلال معارك" ريشوفن وميتز، وفيردان، وغيرها.

ويظهر أن أعداد الجزائريين الذين استقروا في فرنسان ازداد وتضاعف فاحتج المستوطنون الأوروبيون في الجزائر، وضغطوا على الحكومة الفرنسية، حتى أصدرت مرسوم 16 ماي 1874 الذي يفرض على أي جزائري يريد السفر أن يتحصل على رخصة. وبذلك وضع أول قيد لهجرة الجزائريين إلى فرنسا. ودام ذلك سنوات عديدة إلى مطلع هذا القرن وكان أغلب المهاجرين أما رعاة رافقوا أنعام مستخدميهم إلى مارسيليا أو تجار متجولون بالسجاجيد والتحف الجزائرية، أو خدم لدى بعض الخواص الأثرياء.

وابتداء من عام 1912 قفزت اعداد المهاجرين في فرنسا وتضاعفت بسبب صدور قرار التجنيد الاجباري للشبان الجزائريين في الجيش الفرنسي ورفض الجزائريين لذلك، وبسبب ازدياد الضغط، والارهاب والزجر الاستعماري سياسي واقتصاديا واجتماعيا وإداريا، وما إلى ذلك، وأصبح عددهم حوالي 6000 مهاجر تمركزوا في أقاليم: مرسيليا وليون، وباريس، وكالي، ومارسوا العمل في الموانئ والمصافي والمناجم، ومصانع التعدين ومصافي السكر ومؤسسات النقل، والورش العامة المختلفة.

وارتاح لهم رؤساء العمل كثيرا، في المؤسسات والوحدات، وأثنوا عليهم لانضباطهم، ونشاطهم، وحيويتهم، وأشاروا على الحكومة الفرنسية أن تشجيع هجرة الجزائريين إلى فرنسان وتلغي العراقيل التي شرعتها لذلك سابقا، فأصدرت يوم 18 جوان 1914، قرارا ألغت به مرسوم 16 ماي 1874، الذي كان يحدّ من الهجرة ويعرقلها، ولكن المستوطنين الأوروبيين ضغطوا عليها مرة أخرى، واحتجوا وكانت الحرب على الأبواب. وليس من مصلحتها أن تغضبهم، وتثير حقدهم عليها، فأصدرت يوم 15 جويلية قرارا نص على عودة العمل بمرسوم 16 ماي 1874ن ورضخت لمشيته المستوطنين.

وخلال الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918 توسعت حركة هجرة الجزائريين إلى فرنسا، وكثرت أعدادهم، بسبب قيام فرنسا بتجنيد 177 ألف رجل كجنود في جبهات الحرب، و75 ألف رجل كمال في التجهيزات العسكرية ومعامل الذخيرة، والمواصلات، ومناجم التعدين وحفر الخنادق وما إلى ذلك وارتفع الجزائريين حتى وصل إلى 270.000 رجل، قتل منهم في المعارك 52 ألفن وجرح 82 ألف. وعاش المهاجرين الجزائريين سنوات صعبة وقاسية وتعرضت لمشاكل خطيرة انعكست حتى على ذويهم وأهاليهم في الجزائر.

وبعد الحرب عاد الكثير منهم، ولم يبق إلا حوالي عشرة آلاف شخص حسب الاحصائيات الرسمية الفرنسية، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن الرغبة في البقاء أكثر من العودة بسبب ظروف الجزائر وفرنسا ولذلك سيقفز هذا العدد إلى 100 ألف مهاجر عام 1924.